﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٣﴾

[الحديد: 3]

❁ مُناسَبَةُ الآيةِ لِما قبلَها:

الأوّل والآخر والظّاهر والباطن شهادة على قدرته المطلقة

لمّا تجلّت القدرة الإلهيّة في الآية السّابقةِ بجلال الإحياء والإماتة والملك المطلق؛ دلّ على ذلك بما جاء في هذه الآية، ببيانِ أوصافِ قُدرتِهِ وكمالِهِ، فـ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ الذي ليس قبلَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي ليس بعدَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ الذي ليس فوقَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الذي ليس دونَهُ شيء، فكانت هذه الآيةُ برهانًا قاطعًا على تمام القدرةِ وكمال العِلْمِ[1].

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾: جذره اللّغويّ من (أول) أو (وول)، ومن الثّاني على قلب الواوِ همزةً، ومعناه: ابتداءُ الشّيء، وهو ضدّ الآخر وما كان سابقًا[2]؛ وهو وصف لله سبحانه، يدلّ على البَداءة والتّقدُّم والسّبق، فهو الذي لم يُسبق بوجود، ولا يتقدّمه شيء من الخلق، بل كلّ ما سواه مخلوق حادث بعده. ومعنى الجذرِ المحوريُّ: "كون الشّيء ابتداءً وسبْقًا في أمرٍ لجميع جنسه، فيكون كلّ ما يماثله فيه تاليًا له؛ أي: كائنًا بعده"[3]. واسمُ الله تعالى الأوَّلُ معناهُ: الذي ليس قبلَهُ شيءٌ؛ كما جاء في الحديث: «اللهُمَّ أَنْتَ الأَوَّلُ فَلَيْسَ قَبْلَكَ شَيْءٌ، وأَنْتَ الآخِرُ فَلَيْسَ بَعْدَكَ شَيْءٌ»[4]، ومعنى ﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ يدلّ على أنّ كلَّ ما سواه حادث كائنٌ بعد أنْ لم يكن، وأنَّ الله سُبحانَهُ كان موجودًا قبل كلّ شيء[5].

(1) البقاعي، نظم الدرر: 19/ 255.
(2) الأزهري، تهذيب اللغة، والزبيدي، تاج العروس، ورضا، متن اللغة: (أول).
(3) محمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصل: (وول/ أول).
(4) رواه مسلم في صحيحه، حديث رقم: (2713).
(5) الثعلبي، الكشف والبيان: 9/ 227، وسعيد القحطاني، الثمر المجتنى، ص: 7.

2) ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾: اسم فاعل، مشتقّ من الجذر اللّغويّ (أخر)، ومصدره: التّأخّر؛ وهو خلاف التّقدّم، ومِنْ أسماء الله تعالى: الآخِر؛ ومعناه: الذي ليس بعدَهُ شيءٌ، فهو "الباقي بعد فَناءِ خلقهِ كلّه ناطِقِه وصامِتِه"[1]، وهو في آخريّته دالّ على كمال الاستغناء عن كلّ ما سواه، وعلى ثباته وبقائه الذي لا يعتريه زوالٌ.

3) ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾: اسم فاعل مشتقّ من الجذر اللّغويّ (ظهر)، ومصدره: الظّهور وهو ضدّ الاستتار، والظَّهرُ: خلاف البطن. والظّاء والهاء والرّاء تدلُّ تصريفاتُها على قوّة وبروزٍ، ومن ذلك قولهم: "ظَهَرَ الشّيءُ يظهر ظهورًا؛ فهو ظاهر": إذا انكشف وبرز، والظّهور هو عدم الخفاء، فيمكن الوقوف عليه ومعرفته لبروزه، وسمّيت الظّهيرة كذلك لوضوحها[2]. ومعنى ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ في أسماء الله تعالى – وهو الوارد في الآية – : الذي ليس فوقَهُ شيءٌ؛ وفي ذلكَ إشارة إلى علوّه سبحانه، وظهوره في أدلَّةِ قدرته، مع كمال قهره، وتفرّده في الملك والسّيادة[3].

4) ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾: اسم فاعل، مشتق مِنَ الجذر اللّغويّ (بطن)؛ ومنه: البطن وهو خلافُ الظّهر، ويُطْلق على ما غَمُضَ من الأرض، كما يقال: "باطن الأمر: دخْلَتُه، خلاف ظاهره"، والله تعالى هو الباطن؛ لأنّه أحاط بالأشياء علمًا، ويوصف بالباطن ما خفي عن الحواسّ، واحتاج إلى تفسيرٍ، وجميع المواضع التي وردت في القرآن الكريم تحمل معنى الخفاء والاستتار[4]. ومعنى ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ من أسماء الله تعالى – : وهو المراد بالآية – الذي ليس دونَهُ شيءٌ.

❁ المَعْنى الإجْماليُّ:

﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾ لا شيءَ قبله، ولا ابتداء لوجوده الأزليّ، موجودٌ قبل كلّ كائن. ﴿وَٱلۡأٓخِرُ﴾ الذي لا منتهى لدوامه، ولا فناء لذاته، يبقى بعد فناء الخلق، ويدوم بعد انقضاء الأثر، فهو الحيُّ الذي لا يموت، و﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص: 88] فله البقاء المطلق، الذي

(1) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وابن منظور، لسان العرب، والزبيدي، تاج العروس: (أخر).
(2) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والسّمين الحلبي، عمدة الحفاظ: (ظهر).
(3) التستري، تفسير التستري، ص: 161.
(4) ابن دريد، جمهرة اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، والزبيدي، تاج العروس، ومحمد جبل، المعجم الاشتقاقي المؤصّل: (بطن).

لا يعتريه زوال، ولا يلحقه فناء. ﴿وَٱلظَّٰهِرُ﴾ العالي فوق خلقه، بآياته، البائن من خلقه بصفاته، لا يُدانيه في علوّه أحد، ولا يشاركه في عظمته مخلوق. ﴿وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ الذي لا تخفى عليه خافية، ولا يحجبه شيءٌ عن شيءٍ، بل هو أقربُ إلى كلّ شيء من نفسه، مطّلع على الأسرار، خبير بما تُخفي الصّدور، ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ يعلم السِّرّ وأخفى، ويُحْصي كلّ ذرّة، وما تسقط من ورقة إلّا يعلمها، وما من شيء إلّا وهو بعلمه محيط، وفي كتاب مبين مكتوبٌ محفوظٌ[1].

أوّل بلا ابتداء، وآخرُ بلا انتهاء، ظاهر في علوّه، باطن في علمه

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغيُّ:

سرّ فَصْلِ هذه الآية عمّا قبلها، ودلالة البدءِ بالضمير ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ﴾:

فُصِلَت الجملة من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ﴾ عن سابقتها من قوله تعالى: ﴿وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ﴾ لِما بينَهُما مِن كمالِ الاتّصال، وشدّة الارتباط، فكأنّه لَمّا أرسى دعائم القدرة المطلقة، وأخبر بها خبرًا جامعًا؛ أعقب ذلك بالإشارة إلى تفرّده بالوَصْفَيْن العَظيمَين؛ الأوّليّة التي لا ابتداء لها، والآخريّة التي لا انتهاء[2]، ففي هذا الإفرادِ بالذّكر، بعد عموم القدرة: برهانٌ ساطِعٌ على عظمة شأنه، وجلالِ قَدْرِه. وفُصِلَت الجملةُ عن سابِقَتِها أيضًا لكَوْنِها أصلًا قائمًا بذاته، وحقيقة مستقلّة بنفسها[3]، فقد جاءت لبيان أنّ سُلْطانَهُ سُبْحانه ليس كسلطان المخلوقين العارض، بل هو ملك أزليّ أبديّ قائم في كلّ زمان، وممتدّ في كلّ أوان، فهو الأوّل الذي لا ابتداءَ لوجودِهِ قبل خلق العوالم، والآخِر الذي لا انتهاءَ لبَقائِه بعد فناء ما سواه مِن الأكوان[4].

فَصْلُ الذّكر بيانٌ لعلوّ شأنه، واتّصالُ المعنى دليلُ كمالِهِ

(1) ابن جرير الطبري، جامع البيان: 23/ 169.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.
(3) ابن عرفة، تفسير ابن عرفة: 4/ 153.
(4) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 359.

ويؤيِّد هذا الموقع أنَّ الضّمير في قوله تعالى: ﴿هُوَ﴾ ليس ضمير فصلٍ، وإنَّما هو عائد إلى الاسم الأحسن (الله)؛ فالأوصاف الأربعة ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ ليست أخبارًا مترتّبة على ضمير الفصل، وإنّما هي أسماءٌ لله تعالى مقرّرة في سياق مستقلٍّ، ولو جُعِلَ ضميرَ فصلٍ؛ وجب حملُ هذه الأسماءُ على أنّها أخبارٌ عن ﴿ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[1].

دلالةُ إطلاق لفظ ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ دون متعلّق أو قيدٍ:

العناية بإثبات الصّفة أدلُّ على عظيم القدرة وكمالِها

إطلاق لفظ ﴿ٱلْأَوَّلُ وَٱلْآخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ على الله تعالى دون تقييد، إنّما هو دلالة على العناية بإثبات الاسم وما تضمَّنه من الصِّفة، وإرادة العموم على كلِّ ما يُمْكِنُ التّعلّق به والوقوع عليه. فالمقصود أنّه سبحانه هو الأوّل والآخر والظاهر والباطن على الإطلاق.

بلاغة التَّعبير بأسلوب الطِّباق:

وصفٌ جامع بين الأزل والبقاء، وتنزيهٌ مطلَقٌ عن الفناءِ

المطابقة حاصلة بين الوَصْفَيْن المُتضادين[2]؛ إذ يجتمع فيه الإيجاز الإلهيّ ما لا يسعه غيره من البيان، فـ ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾ هو الذي ليس قبلَهُ شيءٌ، ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ هو الذي ليس بعدَهُ شيءٌ[3]، فهو المتفرّد في الأزليّة والبقاء. وآثر التّعبير بلفظ ﴿وَٱلْآخِرُ﴾ الدّال على الباقي بعد هلاك الموجودات وفنائها بقول المولى سبحانه: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: 88] لينشأ طباقٌ بديعٌ مع وصف ﴿ٱلْأَوَّلُ﴾[4]، باجتماع النّقيضين في وصفٍ واحدٍ توكيدًا لشموليَّة قدرةِ الله وعظمته؛ فهو الأوّل بلا ابتداءٍ، والآخرُ بلا انتهاءٍ.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلْبَاطِنُ﴾ جاء الطِّباق بين اللَّفظين مبرزًا كمالَ الإحاطة وجلالةَ الوصف؛ إذ جمع بين ما لا يكاد

(1) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 359.
(2) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 361.
(3) أبو حفص النسفي، التيسير في التفسير: 14/ 484.
(4) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 198.

يجتَمِعُ في إدراك البشر من أمرين متقابلين، فالظُّهور من صفات العلوِّ والرِّفعة، وهو المدرك بالعقول من خلال آياته الباهرة وصنعه المتقن، والبطون من صفات الإحاطة واللّطف، وهو الغيب المستور الذي لا تدركه الأبصار ولا تحيط به الأفكار. ولمّا كان التَّقدّم يورث خفاءً، والتَّأخّر يُشعر بالظّهور؛ بيّن أنَّ الله تعالى يجمع بين السَّبق والعلوّ، وبين الإحاطة والخفاء، على وجه الكمال، لا على ما يعتري المخلوق من ضعف الإدراك أو تضادِّ الصفات. فجاء العطفُ بالواو في إشارةٍ إلى تمام الاتِّصاف بهما معًا، تحقّقًا لا توهُّمًا، وكمالًا لا نقصَ فيهِ[1].

بلاغةُ التَّعبير بأسلوبِ القَصْرِ بطريق تعريف الجزأين:

انفرادُ الله تعالى بكمالِ الأوصافِ

في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ أسلوبُ قصْرٍ، بتعريف طرفي الإسنادِ؛ فإنَّ ﴿هُوَ﴾ مبتدأٌ وهو معرفةٌ، و﴿ٱلۡأَوَّلُ﴾ خبرُهُ وهو معرفةٌ أيضًا، وهذا القَصْرُ قصرٌ حقيقيٌّ يُؤكِّد تفرُّدَهُ سبحانه بمباينَتِهِ خَلْقَهُ، وأنَّه تعالى ليس كمثله شيءٌ.

دلالـة اقـتران الواو مـع أوصافه سبحانه في قولـه: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾:

العـطـفُ دالٌّ عـلـى الـجـمـع بينَ أوصافِ ذي الكمال والفضلِ

الواوُ ليست من بابِ العَطْفِ المفرِّق بين المتغايرات، بل هو من قبيل الجمع بين كمالاتٍ لا تجتمع في غيره سبحانه، فليس المراد انْفِصال كلّ وصف عن الآخر، بل اجتماع كمال الأوّليّة والآخريّة، والظّاهريّة والباطنيّة معًا، على وجه لا يُتصوّر اجتماعه في سواه سبحانه. واقتران هذه الأوصاف في الآية بواوِ العطف؛ جاء ليؤكّد شمول الإحاطة، وكمال الاتّصاف؛ إذ لو حُذفت وأُتي بالأوصاف متوالية دون فصل، لرُبّما تَوَهّم السّامع أنّ هذه الصّفاتِ متداخلةٌ، أو مقيّدة ببعضها، أو أنّ بعضَها شرط لتمام الآخر، بخلافِ التَّعبير

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 255.

بواو العطفِ؛ فإنَّه يدلُّ على أنّ كلّ صفة منها قائمة بذاتها، تامّة في معناها، غير محتاجة لِما يُكَمِّلها أو يُفسِّرها من الصّفات الأخرى، فهو سبحانه أوّل على وجه الإطلاق، وآخر بلا قيد، وظاهر مع كمال بطونه، وباطن مع تمام ظهوره[1]. فالواو الوُسْطى تؤكّد شمولَ صفاته لكلّ الأزمنة والأحوال، فهو الدّائم الذي لا يغيب عن ملكوته شيء، حاضر في كلّ زمان ومكان بعلمِهِ[2]، فقد جاءت الواو بين هذه الصّفات لتجمع شتات معانٍ تبدو متنافرة، مؤكّدة بذلك وحدانيّة المتّصف بها، وشمول كماله، فأتت هذه الأداةُ البديعةُ لتَصوغَ مِن اختلاف الألفاظ اتّفاقًا في الدّلالة على عظمة الحقّ وجَلالِه؛ لتكون بذلك أبلغَ ما يكون البيانُ وأحسنَه[3].

بلاغة ترتيبِ أسمائِهِ سبحانه في الآية، وسرُّ اقترانِها:

ترتيب الصّفات دالٌّ على مراتب الوجودِ لا نقصانٍ في الكمال والجلالِ

في قوله تعالى: ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ ورد ترتيب هذه الأسماءُ الجليلة باعتبار مراتبِ الوُجود وتجلّياته، لا في أصل الكمال وحقيقة الفضل. فهي سِرٌّ عظيم يُدْرِكُه أصحابُ البَصائر المستنيرة، ويغفَلُ عنه الغافلون عن أنوار الحقيقة[4].

والجَمْعُ بين هذه الأوصاف فيه دلالةٌ بالغَةٌ على كمال إحاطته بكلِّ شيء، فهو سبحانه الموجودُ قبل كلِّ موجود، الباقي بعد فناء كلِّ شيء، الظاهر بعلوِّهِ فلا يعلو عليه شيءٌ، والباطن بلطفه ودقَّته، فليس دونَهُ شيءٌ، فجاء الجمع بين هذه الصِّفات المتقابلة لإبرازِ كمالِ الذّات الإلهيَّة من كلِّ وجهٍ، ولإيقاظِ رهبة العظمة واستشعار الإحاطة في القلوب، وفي ذلك من محاسن البلاغة ما يُدْهِشُ العقول، ومن دقَّة التَّعبير ما يدعو العالمين إلى التَّدبر والتَّعظيم[5].

(1) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 256.
(2) الزّمخشريّ، الكشّاف: 4/ 472.
(3) ابن جزي، التسهيل لعلوم التنزيل: 2/ 343.
(4) إسماعيل حقي، روح البيان: 5/ 273.
(5) ابن عاشور، التّحرير والتّنوير: 27/ 363.

علاقة موضوعاتِ سورة الحديد بهَذِهِ الصِّفات:

في كنف (الحديد) استعراضُ القدرة والصّفات في الذّكر المجيد

لمّا كانت سورة الحديد زاخرةً بذِكْرِ تجليّات قدرة الله العظيمة، ومفعمةً بآيات فيها جلال صفاته، وكمال أسمائه[1]؛ وردت فيها هذه الأسماءُ التي تُعبّر عن إحاطة الله المطلقة بكلّ شيء، بدءًا وختامًا، ظهورًا وخفاءً، فلا يُدْرِكُهُ عقل، ولا تحيط به حدود، فهو مَنْبَعُ الوجود ومآلُهُ، ومنتهى الإدراكِ وكمالُه.

أثر هذه الأسماء الأربعة في بناء العقيدة الإيمانيّة عند المسلم:

مفاتيح الخير والنّور بها يستنيرُ العبدُ على طريقِ التّوحيد

أثَرُ هذه الأسماء الأربعة ﴿ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾ في بناء عقيدة المسلم الحقّة لا يخفى، فهي كلمات توحّد الله وتُمجّده، وهي مفاتيح للخير، مَن نطق بها فقد أدرك في الدّنيا معنى التّوحيد الكامل. وتعود هذه الأسماءُ إلى تحقيق العبودية في الظّاهر، وفهم الذّات الإلهيّة في الباطن، وهما مصدر كلّ خير؛ بهما يدرك العبدُ تفاعلَه مع الوجود بأسره[2].

دلالة العطف في ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾:

كمالُ عِلْمِ الله تعالى وسَعَتُهُ

عَطَفَتِ الواوُ جملةَ ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ على صَدْرِها من قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلۡأَوَّلُ وَٱلۡأٓخِرُ وَٱلظَّٰهِرُ وَٱلۡبَاطِنُۖ﴾؛ لأنّ الآية تجمع في نظمها العجيب كمالَ الإحاطة الإلهيّة بالزّمان والمكان، فهو الأوّل الذي لا شيء قبله، والآخر الذي لا شيء بعده، وهو "الظّاهر على كلّ شيء، العالي فوقه، فالأشياء دونه، الباطن جميع الأشياء؛ فلا شيء أقرب إلى شيء منه، ومثله: ﴿وَنَحۡنُ أَقۡرَبُ إِلَيۡهِ مِنۡ حَبۡلِ ٱلۡوَرِيدِ ١٦﴾ [ق: 16]، ويدلّ على هذا أنّ بعده ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾؛ أي: لا يخفى عليه شيء"[3].

وعُطِفَت جملة ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ﴾ على ما قبلَها؛ لما بينَهما

(1) طنطاوي، التفسير الوسيط: 14/ 195.
(2) ابن عجيبة، البحر المديد: 5/ 99.
(3) النّحاس، إعراب القرآن: 4/ 233.

من التَّوسُّط بين الكمالين؛ إذ اتَّحدتا في الخبريَّةِ، وبينهما تناسبٌ في اللَّفظ والمعنى، فأمّا التَّناسب اللَّفْظيُّ فاشتراكُهما في الاسميَّةِ، واتِّحاد المسندِ إليه فيهما وهو الضَّمير (هوَ) العائدُ إلى الله تعالى، وأمّا التَّناسُبُ المعنويُّ؛ فاشتراكُهما في بيانِ الكمالاتِ الإلهيَّةِ.

سرّ التّعبير بالضّمير (هوَ) دون الظّاهر:

إيجاز وربطٌ أبلَغُ مِنَ التّكرار، وتوكيدٌ فيه عظمةُ الجبّارِ

التّعبير بالضّمير في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ دون الاسم الظّاهر يحمل بلاغة دقيقة ومعاني جليلة، ومن ذلك: أنَّ فيه إيجازًا مع الإشارة، فهو تعبيرٌ أوجزُ وألصق بالمعنى دون تَكرار، مع بقاء الإشارة إليه واضحةً للسّامع أو القارئ. ومِنْها: الرّبط السّياقيّ والتّوكيد الذّاتيّ، فالضّمير يربط بين مضمون الآية وسياقها السّابق، ويُفهم منه أنّ الخالق المدبّر المقدّر هو ذاته العليم بكلّ شيء، وفائدته التّوكيد على الذّات الإلهيّة دون الحاجة إلى تسميتها صراحة. ومِنْ ذلك أيضًا: الإعلاءُ من الهيبة والجلال، فالتّعبير بالضّمير يعظّم الذّاتَ المشار إليها؛ إذ الضّمير في مثل هذا الموضع لا يكون إلّا لمن عُلمت ربوبيَّته في السّياق، فهو إضمارٌ مشفوع بالتّعظيم والإجلال.

معنى (الباء) ودلالتها في قوله: ﴿بِكُلِّ﴾:

إحاطةُ التصاقٍ وعلمُ امتزاجٍ

آثَرَ النَّظم الكريم استعمالَ الباءِ الدّاخلة على لفظة (كلّ) لدلالتها على الإلصاق[1]، بخلاف (على) الدّالَّة على الاستعلاء والإحاطة الخارجيَّة، فهو أرادها مُؤْذِنةً بالالتصاق الوثيق، والاتّصال الذّاتيّ للعلم الإلهيّ بكلّ شيءٍ، وعدم انفصالهِ عَن المعلوم، بَل هو لصيقٌ به إحاطةً وشمولًا، كأنّه يمسّه ويحتويه من داخله، فكلّ شيء في هذا الكون الفسيح محاطٌ بِعِلْمِهِ سبحانه إحاطةً لصيقة لا انفكاكَ لها.

الغرض من تقديم الجارّ والمجرور ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾ على الخبر ﴿عَلِيمٌ﴾:

يفيد تقديمُ المتعلِّق على الخبر في قوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ

(1) محمّد الهلال، تفسير القرآن الثّري: 11/ 326.

إحـاطـةُ علم الله تعالى بكلِّ شيءٍ؛ كُلِّيًّا كان أو جزئيًّا

﴿عَلِيمٌ﴾ الاهتمامَ ببيانِ ما يدلُّ على عمومِ العلمِ والإحاطَةِ؛ ليكونَ أنسبَ للعمومِ المذكورِ قبلُ في الآيةِ السّابقةِ.

وفيه إثباتُ كمال علمه ﷻ، وردٌّ على من قد يتوهّم أنَّ بعض الأشياء قد تخفى عليه؛ فهو سُبحانَهُ "العالم الَّذي لا يَحْتَجِبُ عن علمه شيءٌ من الجزئيّات والكليّات"[1]؛ فجاء التّقديم لإزالة هذا التّوهّم، وتعميقِ المعنى في النّفوسِ.

الغرض من إضافة (كلّ) إلى ﴿شَيْءٍ﴾ في قوله: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾:

عـلـمـه محـيـطٌ بـالـبـاطـن والـظّـاهـر، فلا يـخـفـى عـلـيـه شيءٌ

للتّعبير بقوله تعالى: ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ إشارة بالغة إلى أنَّ جميع الأشياء لديه سبحانه في منزلة واحدة من الظّهور، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ولا في السّماء، فما كان عند الخلق باطنًا أو ظاهرًا إنّما هو بحسب إدراكِهم المحدود، وأمّا علمُ اللّهِ المحيطُ فلا يحجبه حجاب، ولا يغيب عنه شيء، فهو موجِدُ الأشياء المحيط بها علمًا وقدرةً وحكمةً[2].

سرّ التّعبير بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل)، والغرض من تنكيره:

(عَـلـيـمٌ) بلا حصر ولا تقييد بصيغة تفيد الثّبوت والتّأكيد

التّعبير بـ ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل) دون غيره من نحو (علّام) أو (عالم)؛ فلأنّ المرادَ هنا صيغة الصّفة المشبّهة لا اسم الفاعل، والمعنى: أنَّه سبحانَهُ عليم بكلّ شيء من غير حصر أو تقييدٍ[3]. ويجوز أن يكون ﴿عَلِيمٌ﴾ على وزن (فَعيل) للمبالغة، على أن تكون المبالغة متوجّهة إلى الكيف لا الكمّ؛ لأنّه قد استغنى عنه بقوله تعالى: ﴿بِكُلِّ شَيْءٍ﴾، فأتى الوصف مؤكّدًا للكيفِ لا الكمِّ؛ فعِلْمُهُ سبحانه كاملٌ في القوّة والنّوع والإحاطة، لا في العدد والحصر فحسبُ[4]. وفي تنكيرِ ﴿عَلِيمٌ﴾ تفخيمٌ وتعظيمٌ وتعميمٌ.

(1) الفخر الرازي، مفاتيح الغيب: 29/ 443.
(2) البقاعيّ، نظم الدّرر: 19/ 257.
(3) ابن التّمجيد، حاشية على تفسير البيضاوي: 18/ 438.
(4) الشهاب الخفاجي، عناية القاضي وكفاية الراضي: 8/ 152.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع والخمسون،
سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1447هـ - 2026م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2026م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13
[إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2026.
مج. 59 ، 802 صفحة؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-648-68-0
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 59 : المجلد التاسع والخمسون، سورة الرَّحمن من الآية 31 إلى سورة الحدِيد الآية 13.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن-
ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث

الترقيم الدولي : 978-9948-648-68-0
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-7377148 بتاريخ 2026/01/07م،
الهيئة الوطنية للإعلام، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
"تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري
الصادر عن المجلس الوطني للإعلام"
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي "النجار"